

الاختلاف بين التضمين والنيابة في النحو العربي

عائشة مبروك

الملخص:

لقد شاع الاختلاف بين مدرستي البصرة والكوفة في عدّة قضايا نحوية وأخرى صرفية ، والتي من بينها حروف الجر ، وقد حاولنا من خلال هذا البحث محاولة التوصل الى أي مدى بلغ الاختلاف بين المدرستين في دراسة كل منهما لهذه الحروف مع تعزيز موقف كل مدرسة . معتمدين في ذلك على التراث اللغوي ، متتقين أهم أراء وحجج الموقف التضميني ثم الموقف النيابي .

لمعرفة مدى تأثير حرف الجر في خلق المعنى وإيصاله من الفعل إلى الاسم ، وهل الفعل حقا له إمكانية تضمن معنى فعل آخر؟ فتكون العلة فيه دون الحرف؟ أم اختلاف المعنى يقتصر على الحرف دون غيره في السياق؟ الكلمات المفتاحية: التضمين ؛ النحو العربي ؛ مدرسة البصرة ؛ مدرسة الكوفة .

Summary :

The disagreement has spread between the school of Basra and Kufahin several grammatical cases and issues, which include prepositions. We have tried through this research paper, to find out and to reach the extent of the difference between the two schools in the study of these prepositions by giving the opinions of each school in proofs and evidence relying on that linguistic heritage. Selecting the most important views and arguments of: first inclusion perspective scholar and then the representative position scholar. To know how effective the preposition in the creation and delivery of meaning from the state of a verb to the state of noun, and whether the verb really ensure that the meaning of another verb? Then is the weakness in the verb without the character or the letter? Or is the difference in meaning only limited to the character without other in the context?

التضمين مصطلح واسع المفهوم، وهو شركة بين النحو والبلاغة بقسميها البياني والبديعي، وقد اختلف معناه بين هذين القسمين، إذ انه مثل في البيان تضمن لفظ معنى لفظ آخر، واما في البديع فقد مثل اخذ شاعر من شاعر آخر بيتا أو بعضه من شعره

أولا: التضمين في النحو العربي

لغة: الضمين الكفيل، ضمن الشيء ضمنا وضمانا، أي كفل به، ضمن الشيء الشيء أي أودعه إياه، كما نودع الوعاء المتاع والميت القبر. ضمنه أودع فيه وأحرز، والمضامين ما في بطون الحوامل من كل شيء كأنهن تضمنه.

والمضمن من الشعر ما ضمته بيتا، وقيل ما لم تتم معاني قوافيه إلا بالبيت الذي يليه.¹

أما التضمين اصطلاحا: فهو إشراب لفظ معنى لفظ آخر فيأخذ حكمه، أو كلمة تأخذ مؤدى كلمتين مثل: فعل يتعدى بحرف، وفعل يتعدى بآخر. والتضمين هو تعدية الفعل الأول بحرف الفعل الثاني.²

ومن التعريفين اللغوي والإصطلاحي لهذه المادة وجدنا أنه إنما يقصد به إشراب كلمة معنى كلمة أخرى، والكلمة في اللغة العربية بأقسامها، والتضمين وسيلة من وسائل نقل الفعل اللازم إلى متعد، والفعل المتعدي إلى لازم.

أقوال البصريين وحججهم في التضمين:

إنما ورد مصطلح التضمين لدى علماء البصرة بسبب تشددهم في قبول ما جاء في اللغة على شكله الظاهري، لأنهم ينكرون القول بنبابة حروف الجر بعضها عن بعض، وما جاء منها في أسلوب لا يمكن رفضه، يرد بوجه من وجوه التأويل إلى الأصل المفترض عندهم الذي يكون غالباً في التصرف في الفعل حتى يتوافق مع معنى الحرف وطريقة استعماله.³

ومن هذا نجد أن مدرسة البصرة حددت معنى الفعل داخل السياق وبنوع الحرف المرتبط أو المعدى به.

ويقول ابن جني واصفاً التبادل بين علاقة الأفعال بضمائنها: "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بفعل والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع الآخر، إيدانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر".⁴

وبهذا نجد أن ابن جني من مؤيدي مدرسة البصرة في باب تضمين الفعل معنى فعل آخر.

ومنه نجد أن البصريين يلجؤون إلى ثلاثة أمور في قولهم بتناوب حروف الجر:

1. التأويل الذي يقبله اللفظ.

2. تضمين فعل معنى فعل آخر يتعدى بذلك الحرف.

3. أن يكون على سبيل الشذوذ.⁵

وبهذا فهم يرون بأن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض قياساً، كما لا ينوب حروف النصب والجزم بعضها عن بعض، ومذهبهم في هذا إبقاء الحرف على موضوعه الأول، إما بتأويل يقبله اللفظ أو تضمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بذلك الحرف، وما لا يمكن فيه ذلك فهو من موضع أحد الحرفين موضع الآخر على سبيل الشذوذ.

ويقول الراغب الأصفهاني في تعدية فعل الرؤية: ورأى إذا تعدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم نحو قوله تعالى: "ويرى الذين أوتوا العلم" سورة سبأ الآية 6، وإذا عدي بـ إلى اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الإعتبار نحو قوله تعالى: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل" الفرقان الآية 45، وقوله تعالى: "بما أراك الله" سورة النساء الآية 105، أي بما علمك وعرفك.⁶

ومن هذا نجد أن الراغب الأصفهاني ينتصر لرأي البصرة في تضمن الفعل معنى فعل آخر، حيث ضمن رأى المتعدي إلى مفعولين معنى العلم، ورأى المتعدي بحرف الجر إلى معنى النظر والإعتبار.⁷

وقد ورد في الأشباه عن السيوطي أن الفعل قد يتعدى بعدة من حروف الجر على مقدار المعنى المراد من وقوع الفعل، لأن هذه المعاني كائنة في الفعل، وإنما يثيرها ويظهرها حرف الجر...

ومن هذا القول نجد أن السيوطي ربط معنى الفعل في السياق بالحرف الذي يوصل معناه إلى الإسم.

وقد ضمن التضمين في اللغة العربية في باب ما يسمى بالحمل على المعنى، حيث يقول ابن جني في هذا المقام: "اعلم أن هذا النوع غور من العربية بعيد ومذهب نازح فصيح، وقد ورد به القرآن وكلام العرب منظوماً ومثثوراً، ومن مسائل الحمل على المعنى ذكر اتصال الفعل بحرف ليس مما يتعدى به، لأنه في معنى فعل يتعدى به، نحو قول الشاعر:

قَدْ قَتَلَ اللَّهُ زَيْدًا عَنِّي⁸

أي صرفه عني وابعده .

وقد وافق المجمع اللغة العربية بالقاهرة وافق واصطلاح على مصطلح التضمنين قياسا في تضمين الفعل معنى الفعل الآخر، إذ نجد في المقابل مجمع اللغة الأردني يرفض فكرة التضمنين ولم يرتض لها القياس، وذلك بتبنيه مذهب الكوفيين الذي يقول بنبابة الحروف بعضها عن بعض متخذاً من رأي ابن قتيبة وسيلة لتأويل النصوص.⁹

ثانياً: النيابة في النحو العربي

هذا المصطلح الذي لطالما توغل في الفكر البصري وواجهت به هذه المدرسة، المدرسة البصرية وردت عليها بعد قولها بالتضمنين

النيابة لغة يقال: نوب، ناب الأمر نوبا ونوبة أي نزل، والنائبة هي النازلة.

قال ابن جني: مجيء فعلة على فعل، يريك كأنها إنما جاءت عندهم من فعلة، فكأن نوبة نوبة. وذلك لأن الواو مما سبيله ان يأتي تابعا للضمة. فقال: وهذا يؤكد عندك ضعف حروف اللين الثلاثة.

يقال: ناب فلان عن فلان ينوب نوبا ومنابا، أي قام مقامه. وتناوبنا الخطب والأمر نتناوبه إذا قمنا به نوبة بعد نوبة.¹⁰

والنيابة في الاصطلاح النحوي تعني: إسقاط أحد عناصر التركيب الجملي الذي يستدل عليه من الأصل المفترض لهذا التركيب المستخدم الذي تقتضيه قواعد التركيب في العربية وإحلال عنصر آخر محله في الاستعمال فيأخذ عنه شيئاً من خصائصه لا كلّها لأنه ليس إياه.¹¹

ومن التعريفين اللغوي والاصطلاحي نجد أن النيابة في اللغة هي إنزال أمر مكان آخر، وذلك بالأخذ منه بعضاً من حكمه ومعناه لا كله. ومن بين النيابات في اللغة العربية نيابة حروف الجر بعضها عن بعض في السياق.

هذا المصطلح الذي لطالما توغل في الفكر الكوفي وواجهت به هذه المدرسة، المدرسة البصرية وردت عليها بعد قولها بالتضمنين.

وذلك لأن الكوفيين لا يتسامحون في قبول اللغة ويعدلون عن كل مسموع ولو كان قليلاً، ويتعدون عن التأويل، ويرون أن أحرف الجر يمكن أن ينوب بعضها عن بعض في إيصال معنى الأفعال إلى مفاعيلها، ويستمدون ما يؤيد وجهة نظرهم هذه من مصادر التقعيد الأساسية: القرآن والسنة.¹²

أقوال الكوفيين وحججهم في النيابة:

وقد انتصر لهذا المذهب العديد من النحويين، نذكر منهم الهروي الذي قال: اعلم أن حروف الخفض يدخل بعضها مكان بعض، وقد جاء ذلك في القرآن والشعر، ثم أخذ يذكر حروف الجر فبدأ بـ " في " وقال: لها ستة مواضع.¹³

كما نجد أن منهج الكوفيين أقرب إلى الاستعمال اللغوي، وهو واصف لوضع اللغة كما هو كائن عليه دون تعسف، أي أنه يستند إلى التفسير الظاهري للسياق الذي هو اقرب للتيسير.

ويقول ابن هشام في هذا السياق: "... وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، ويجعلون ذلك شاذاً، ومذهبهم أقل تعسفاً".¹⁴

إذ أن تحديد معنى الحرف يتوقف على موقعه في الجملة، فالسياق هو المحدد الأساسي لمعنى الحرف. ويؤيد هذا التوجه ما قرره النحاة في كثير من كتبهم. وهو ما سنقف عنده في شروط النياية.

وقد قال أبو عبيدة: ومن مجاز الأدوات اللواتي لهن معان شتى، فتجيء الأداة منهن في بعض تلك المواضع لبعض تلك المعاني، وهو كثير في القرآن والسنة.¹⁵

كما أثبت سيبويه غير معنى ابتداء الغاية لـ "من" حيث يقول: "وتكون للتبعيض أي من للتبعيض، تقول: هذا من الثوب، وهذا منهم كأنك قلت بعضهم. ويقول في موضع آخر: وقد تأتي من بمعنى عن، نحو كساه من عري.¹⁶

وفي موضع ثالث يقول عن "من" أنها لبيان الجنس بعد أن ذكر قوله: "هذا باب ما الكلم من العربية".¹⁷

وقد ربط النحاة تعلق الحرف بالفعل في سبعة مواطن، وهذا ما أشار إليه ابن الفلاح حيث قال: تعلق حروف الجر بالفعل يأتي لسبعة معان:

1. تعلقه بالمفعول به./2. تعلقه بمفعول له، ك: جئتكَ للمصالحة.
3. تعلقه بالظرف، ك: أقمت بمكة./4. تعلقه بالحال، ك: خرج بعشيرته.
5. تعلقه بالمفعول معه، ك: مازلت يزيد حتى ذهب./6. تعلق التشبيه بالمفعول به، ك: قام القوم حاشا زيد./7. تعلقه بالتمييز، ك: يا سيدا ما أنت بسيد.¹⁸

ووفقا لما ورد عن السيوطي بأن اختلاف الحرف وتبادلته على الصيغة الواحدة لم يحصل عبثا أو لمجرد إيجاد باب للتأويل، وإنما مرد ذلك اختلاف المعاني التي تتنوع باختلاف الحرف، فالفعل عندما تتوارى عليه الحروف المعدية لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائدا عن المعنى الآخر. ومن نماذج تناوب حروف الجر:

1. الباء: حرف مختص بالإسم ملازم لعمل الجر وهي ضربان: زائد وأصلي. وظيفتها الأصلية تؤدي التعدية في الجمل التي تدخلها، ولها اثنا عشر معنى، منها التعدية، والأصل فيها أن تكون مكسورة، وقيل أنها تفتح مع الظاهر.

قد تأتي الباء بمعنى "مع" نحو: سافر برعاية الله، وأرجع بها، أي مع وتكون للمصاحبة، وتأتي بمعنى "على" نحو: من الناس من تامنه بدنار فيخون الامانة: أي على وتكون بمعنى الإستعلاء، وتأتي بمعنى "عن" وتكون للمجاوزة، وتأتي بمعنى "من" نحو: حفلت المائدة فتناولت بها شهى الطعام أي: منها، وتكون للتبعيض، وتأتي بمعنى "إلى" نحو: أحسن بي الصديق وقت الضيق أي: الي وتكون للغاية.¹⁹

2. اللام: حرف من حروف الجر لها معان كثيرة ومتشعبة، وهي الرابطة بين لفظين في الجملة وتأتي للتعدية والتقوية، ولام التعدية هي اللام الداخلة على المفعول به لتعدية الفعل إليه، ومن معانيها:²⁰

قد تقع اللام موقع "على"، وقد تكون بمعنى "إلى"،

وقد ترد بمعنى "مع"، حيث قال الشاعر تميم بن نويرة:

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكََا لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْقَ لَيْلَةً مَعَا

أي مع طول اجتماع.

وقد تكون بمعنى "من" كما قال الشاعر:

لَنَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ

أي منكم.

وبهذا نجد أن الكوفيين يستندون في قولهم بنبابة حروف الجر بعضها عن بعض إلى واقع الاستخدام اللغوي، الذي يتميز بنوع من الحرية في تحديد العلاقات الرابطة.

هوامش البحث:

- ¹ . ينظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (ض.م.ن)
- ² . ينظر الرضي: شرح الرضي على الكافية، تع يوسف حسن عمر، ج4، منشورات جامعة قان يونس بنغازي، 1996، ص. 136.
- ³ . ينظر صادق خليفة راشد: دور الحرف في أداء معنى الجملة، ص 207 وما بعدها.
- ⁴ . ابن جني: الخصائص، ج2، دار الكتاب العربي بيروت، دط، ص. 308.
- ⁵ . ينظر عبد العزيز عبد الله الرومي: حروف المعاني العامة في سنن أبي داود معانيها واحكامها واستعمالاتها، رسالة دكتوراه، جامعة ام القرى المملكة العربية 1424 هـ ص. 347.
- ⁶ . ينظر يوسف الأنصاري: من اسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم، مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، ج15، ع 27، جمادى الثاني 1424 هـ، جامعة أم القرى، ص. 736.
- ⁷ . المرجع نفسه، ص. 737.
- ⁸ . ينظر المرجع نفسه، ص. 225.
- ⁹ . صادق خليفة راشد: دور الحرف في معنى الجملة، ص. 235.
- ¹⁰ . ينظر ابن منظور: لسان العرب، باب النون، ج 50، مجلد 6، م م س، ص 4569، 4570.
- ¹¹ . علي بن مناو: أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير، م م س، ص. 577.
- ¹² . ينظر صادق خليفة راشد: دور الحرف في معنى الجملة، م م س، ص. 207.
- ¹³ . ينظر علي بن مناو: حروف الجر والتفسير، دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير، رسالة دكتوراه، ص. 579.
- ¹⁴ . ابن هشام: مغني اللبيب، نقلا عن عبد العزيز بن عبد الله الرومي: حروف المعاني العامة في سنن أبي داود، م م س، ص. 349.
- ¹⁵ . ابو عبيده: مجاز القرآن، تع محمد فؤاد مزي، مكتبة الجانجي مصر، د ت ج 1، ص 14.
- ¹⁶ . سيبويه: الكتاب ج 4 م م س، ص 224.
- ¹⁷ . الكتاب: سيبويه، ج2 م م س، ص 307.
- ¹⁸ . ينظر السيوطي: الأشباه والنظائر في النحو، ج2، م م س، ص. 205.
- ¹⁹ . ينظر الحسن بن القاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تع: فخر الدين قباوة، ومحمد نذير فاضل، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 1992، ص 36 وبعدها. وعباس حسن: النحو الوافي، ص. 388.
- ²⁰ . ينظر الزجاجي: حروف المعاني، تع: علي توفيق الحمد، ط2، مؤسسة الرسالة ودار الأمل، بيروت، لبنان، 1986 ص من 75 إلى 79.